بطلان استدلال الغلاة بقول ابراهيم عليه السلام لسارة (ليس على وجه الأرض مسلم غيري وغيرك)

استدل المخالفون بما ورد في الصحيحين عن إبراهيم أنه قال لسارة زوجُه ما مسلم في الأرض غيري وغيرك على أن مجهول الحال كافرٌ بالقطع واليقين ووجه إستدلالهم أن ابراهيم كفّر كل من في الأرض بالعموم ولم يستثنِ أحداً فدل هذا على ان التكفير بالعموم من ملّةِ إبراهيم عليه السلام !!

فقد روى البخاري بسنده عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِسَارَةَ، فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ المُلُوكِ ، أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ: دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بِامْرَأَةٍ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟ قَالَ: أُخْتِي، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: لاَ تُكَذِّبِي حَدِيثِي، فَإِنِّي أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكِ أُخْتِي، وَاللَّهِ إِنْ عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ....) صحيح البخاري (3/ 80) وللحديث ألفاظ متقاربة في مسلم وغيره من اصحاب السنن .

ولا ريب أن استدلالهم بقول ابراهيم عليه السلام باطل ولا تعلّق لهم به و الجواب على هذه الشبهةِ من عدّة وجوهٍ

1_ إن الأرض التي كان يقصدها ابراهيم عليه السلام انما أرض مخصوصةٌ معهودة هي أرض الجبّار التي دخلها و ليست الأرض كلها ، وقد ورد لفظ الأرض في القران الكريم وإريد به أرض معيّنة مخصوصة محدودة دل على خصوصها سياق النص ودلالة العقل في مواضع كثيرة في القران الكريم

ومن ذلك قول الله تعالى {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا } [البقرة: 22] وقد دلّ العقل على انه اراد بعض الأرض لأن فيها الجبال الوعرة والقمم العالية التي لا يبلغها الانسان إلا بشق الإنفس والمغارات والأودية السحيقة .

ومن ذلك قوله تعالى {قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ} [النساء: 97] فدلّ العقل وسياق النص معاً على انه أريدَ بها بعض الأرض وأرض مخصوصة محدودة لا كل الأرض فإنه لمّا أمرهم بالهجرة من أرضٍ الى ارضٍ وقال ارض الله واسعة علمنا عقلاً أنها بعض من كلٍّ وانها الأرض التي وقع عليهم الإستضعاف فيها دون غيرها .

ومن ذلك قوله تعالى ({وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا} [النساء: 100] دلّ العقل والنص على أن الأرض هي غير الأرض التي هجِرَ منها وإلا لكان النص ينقض بعضه بعضاً ولبطلت الهجرة من حيث سيكون في الأرض التي هم مقيمون فيها قبل الهجرةِ مراغما كثيرا وسعة !!

ومن ذلك قوله تعالى {يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } [المائدة: 21] فدلّ العقل على لم يُرِد كل الأرض ولا كل الأرض مقدّسة فإنهم داخلون في بعض الأرض قبل امرِهم بدخولها حيث هم مقيمون ، وثم لا يقدرون على دخول كل الأرض فدل هذا على انها أراد بالأرض أرضاً دون أرضٍ . ودلّ النص كذلك بالصفة المقيّدة لها (المقدّسة) على خصوصها دون غيرها ودون الأرض التي هم مقيمون عليها وقت الخطاب .

ومن ذلك قوله تعالى لبني إسرائيل وهم في سيناء {فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ } [المائدة: 26] فدلّ العقل على أنّ ألأرض التي تاهوا فيها غير التي حرّمت عليهم ولو كانت الأرض تعم كل أرض لكانوا تائهين في الأرض التي حرّم عليهم دخولها وكانَ النص متناقضاً يكذب بعضها بعضاً .

ومن ذلك قوله تعالى ({ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ } [المائدة: 33] فدل العقل والنص على أن لم يرِد بالأرض كلها وإلا لكان نفياً منها إليها واخرجاً منها كلّها إلى بعضها !! او نفياً من كلّها إلى السماء !! وهذا خبطٌ وجهل لا يقول به عاقل .

** ومن ذلك قوله تعالى { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)} [الغاشية] فدلّ العقلُ والنص معاً أنه لم يُرِد بالنظرِ إلى كل الأرضِ أوأن كل الأرض قد سطحت ، فإنه إن كانت سطحت فالجبال من الأرض وفيها وقد نصبت شامخاتٍ وعِراتٍ مرتفعات محدّبات !! وإنما أراد بالنظر إلى ما يرى من تمهيد الأرض وتذليلها للعيش والزراعة والفلاحة فمن قال بأنه قد عنى كل الأرض فقد كذّب الله تعالى ونسب إليه الجهل في علمِه ونظمِ كلامه .
ودل العقل والنص على أنه لم يُرِد بدعوة العرب وغيرهم إلى النظرِ النظرُ إلى الأرض بكليتها فإن الدعوة إلى النظر البصريّ إليها كليةً غير مقدورٍ إلا لمن كان خارجاً منفصلاً عنها مبايناً لها ، وإذا كان الامر كذلك فيلزمُ منه ان تكون دعوة الله وحجّته في كلامه ممتنعةً عقلاً وحسّاً وهذا فيه تكذيب لله وإبطال لحجته على خلقِه إذ هو يدعو كل ذي عينين وبصرٍ إلى ما ليس بمقدور للبشر أن ينظروه بأبصارهم وتكون دعوته كدعوتك الاعمى أن يبصِر المحسوس والأصمّ ان يسمع والمشلول أن يتحرّك !! وهذا فيه نسبة الجهل والعبث لله عز وجل وهو كفرٌ من كلّ وجهٍ .

إذن ليس كل لفظ مطلق هو على اطلاقه انما قد يكون من المطلق المقيّد ، وتقييده يكون بالقرائن النصيّة وإما العقلية القطعية كما قعّد لذلك الإمام الشافعيّ في كتاب الرسالة وكل من جاء بعده من الاصوليين .

وإذا ما علمنا هذا فللقائل أن يقول هنا قد سلّمنا لك لما تقول في تاصيلك ان الإطلاق قد يكون مقيّداً بالنص والمعقول فأين التقييد العقلي أو النصّي في كلامه على أنه لم يرد بالأرض كل الارض ولا كل سكانها قيل الجواب على هذا :

1_ أنه قد دل السمع والشّرع دلالة قطعية على أن لوطاً عليه السلام قد آمن لابراهيم ودعوته قبل هجرتهما { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [العنكبوت: 26، 27] و قال تعالى {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) } [الأنبياء: 71] فإبراهيم إذ ذاك يعلم علماً يقينياً بإيمان لوط ونبوّته وقد نجاهما الله من قومهما وهاجرا سويّة . فإن قالوا أن إبراهيم كفّر كل أهل الأرض عموماً من غير استثناء وقد علم إيمان لوطٍ فيلزم منه ان يكون إبراهيم إمّا كاذباً او مكفّراً للوط عليه السلام مع علمه بإيمانه والقول بأحد القولين كفرٌ وزندقةٌ .

2_ إنَّ ابراهيم عليه السلام نبي ورسول وقد جاء في رواية البخاريّ قوله (وَاللَّهِ إِنْ عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ) ولا يقسم نبيٌّ بالله تعالى على أمرٍ مما لم يحِط به خبراً إلا ويكون قد علمه بوحيٍ من الله تعالى له . ولا يقسِم على أمرٍ إلا ويكون صدقاً لا يحتمل الكذب بحال ولو كان في كلامه خطأٌ او عدم مطابقة للواقع لنبهه الله عليه كما نبّه موسى عليه الصلاة و السلام على وجود الخضرِ لمّا نفى علمه بمن هو أعلم منه ، فإذا كان ظاهر خبرِ إبراهيم معارضٌ لما علمه إبراهيم من نفسه ولما أخبره الله به قبل ذلك دل على ان قول ابراهيم لم يكن مقصوداً به المعنى الظاهر . وليس هو من قبيل الإجتهاد والظن ولا مما قد يختلف مع الواقع بحال . وإذا كان كذلك فلا سبيل إلّا الى القول بأن حَلِفَ إبراهيم لم يكن إلا على أرضٍ وبقعةٍ مخصوصةٍ معهودةٍ عنده وعند زوجه وانه قد علِم حالَ اهل تلك الأرض بوحيٍ من الله تعالى قطعاً وانه لم يقصِد كل الأرض ولا كل الأقوام في كل الأرض و لا سبيل لنا غير ذلك .

ثم إن كان جازلإبراهيم عليه السلام كما في رواية أن يقسم بالله تعالى على نفيِ كون مسلم غيره وزوجّه وهو إنما أقسم بيمين مغلظةٍ اعتماداً على وحي الله تعالى كما قد بيّنّا فهل يجوّزالغلاة ان يُقسم الواحد منهم قسماً مغلّظاً على نفي وجودِ مسلمين غير الذين عرفهم شخصيّاً . إن أقسموا فقد رجموا بالغيب بما لم يحيطوا بعلمه وإن لم يقسِموا بطل قياسهم واستدلالهم .

ولعلم أهل العلم بهذا واستقراره في ذهنهم وفهمهم له على الوجه الصحيح أجابوا بأنّ قول إبراهيم عليه السلام يحبُ ويتعيّن تقدير الكلام فيه بما لا يتعارض ظاهره مع المعلوم المتيّقن ولهم في تقدير ذلك كلامه عليه الصلاة والسلام وجهان :

الجواب الاول :

أن مقصوده بالأرض البقعة التي كان بها الجبّار دون غيرها قال ابن حجر في الفتح (6/ 393) قَوْلُهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ يَشْكُلُ عَلَيْهِ كَوْنُ لُوطٍ كَانَ مَعَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فَآمَنَ لَهُ لوط وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَابَ بِأَنَّ مُرَادَهُ بِالْأَرْضِ الْأَرْضُ الَّتِي وَقَعَ لَهُ فِيهَا مَا وَقَعَ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ لُوطٌ)

وقال القسطلاني في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (5/ 349) وتخصيص الأرض بالأرض التي وقع بها ذلك دافع لاعتراض من قال إن لوطًا كان مؤمنًا معه قال تعالى: {فآمن له لوط} وبمثل ذلك قال الملا علي القاري في شرحه على البخاري (15/ 249) .

الجواب الثاني : أنه قصد أنه لا يوجد معهما مسلم في ذلك اليوم الذي تكلّم فيه خاصّة حيث هما مجتمعان لا احد معهما فقد جاء في رواية إبي داوود سنن أبي داود (2/ 265) بلفظ (وَإِنَّهُ لَيْسَ الْيَوْمَ مُسْلِمٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ) . أي لا يوجد مسلم برفقتنا في هذا اليوم حيث نحن هنا وهذا واضحٌ لمن تاملّه وهو يرد على كلام الناس كقول أحدهم (ليس اليوم معلّم غيري وغيرك) أي حاضرون هنا .

الوجه الثالث :

أنه قصدَ أنه لا يوجد في هذه البقعة من الأرض زوجين على الإسلام غيري وغيرك ، قال ابن كثير في التفسير (وَكَأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا أي كلام إبراهيم - وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ زَوْجَانِ عَلَى الْإِسْلَامِ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، فَإِنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ .وبمثله قال الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (3/ 276) .

قلتُ وهذا وجهُ حسنٌ إذ قوله عليه الصلاة والسلام كما جاء في رواية مسلم (4/ 1840) بلفظ (فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ) مع علمه بأنّ له اخاً على الإسلام هو لوطٌ مؤذِنٌ بأنه إنما خصّها بالذّكر لارتباطها معه برباط الإسلام كزوجةُ مسلمة لا لانفرادها بالإسلام عن غيرها ولا لنفيٍ أن يكون على الإسلام غيرهما مع ملاحظةِ أن الجبّار لم يكُن يعتدي على الأخوات فعلل لها تسميتها اخته وحرضّها على فهم ذلك المعنى وان كانت زوجته لارتباطهما بولاء الإسلام كقول الله تعالى (إنما المؤمنون أخوة) .

الوجه الرابع :

وهو إنما أراد نفي أن تكون له اختٌ في الأرض من دم وقرابة على الإسلام ، ذلك ان كلام إبراهيم عليه السلام جاء في سياق التفهيم والتبرير لزوجِه سارة وصُفه إياها للجبار بأنها اخته إيهاماً له بأنها اخته من النسب مع انها ليست بأخته من النسب والقرابة لكي يندفع توهمها أن في الكلامِ كذباً صريحاً . وهذا المعنى واضحٌ لمن تامّله حيث قال فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ (أي بالكلام الموهم) ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ، قَوْلُهُ: إِنِّي سَقِيمٌ، وَقَوْلُهُ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ، فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ، إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ،

فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ . وفي لفظ البخاري (4/ 141) فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، فَلاَ تُكَذِّبِينِي .

وبهذا البيان يتبيّن أن استدلال الغلاةِ بقول إبراهيم على أنه يلزم للموحّد أن يكفّر عموم أهل الأرض قاطبةُ لا يستقيم لهم الإستدلال به ولا لهم به تعلّقٌ بوجه . وإن كنا نقول أن غالب أهل الأرض مشركون بالنظر الى غالب أحوالهم العامّة وهذا لا يخالف فيه مسلم عرف حال القوم بعد معرفته الإسلام والتوحيد وما يضاد من الشرك والتنديد .

هذا والله تعالى أعلم .
كتبه أبو نوح الشامي .